المحاضرة الثانية

العوامل المؤثرة في الذوق الأدبي

عناصر المحاضرة
- ✓ المقدّمة
- ✓ العوامل المؤثرة في الذوق الأدبي:
  - •البيئة.
  - •الزمان.
  - •الجنس.
  - •التربية.
  - •المزاج الخاص.

مقدمة:

تناولنا في المحاضرة السابقة معنى الذوق والتذوق في اللغة والاصطلاح، وبينا كيف كانت بدايات التذوق الأدبي انطباعيّة غير مبنية على نظريات وعلوم، وقسمنا الذوق تقسيمات متعددة.

وفي هذه المحاضرة سوف نتناول أبرز العوامل التي تؤثر في الذوق أو الذائقة الأدبية عند الشخص.

العوامل المؤثرة في الذوق:

لا شك أن الذوق الأدبي ليس ثابتا وإنما يخضع لمؤثرات تتوارد عليه فتخالف بين ذوق الفرد أو الجماعة أو الأمة ، ومن أهم تلك العوامل :

١-البيئة :

ويراد بها الخواص الطبيعية والاجتماعية التي تتوافر في مكان ما ، فتؤثر فيما تحيط به آثارا حسية ممتازة ، والدليل على ذلك أننا نجد أن الذوق عند البدو غيره عند أهل الحضر لما بين البيئتين من فروق مادية ومعنوية تطبع عناصر الذوق بطابعها في كلتيهما ، وهي فروق بين الخشونة والرقة، وبين الاضطراب والاستقرار وبين البساطة والتعقيد ، وهي فروق بين ذوق يطمئن إلى العناصر الخيالية الصحراوية وإلى المعاني القريبة الصريحة والفضائل البدوية والحرية، وبين ذوق لا يرضى إلا بصورة الترف وعميق المعاني ، والعناية بالأداء والصنعة . وتجد ذلك واضحا عند أهل البادية الذين كانوا يفضلون زهيرًا وذا الرمة الذين كان شعرهما بدويا خالصا لفظا ومعنى وخيالا ، بينما نرى الكوفيين يفضلون الأعشى الذي تحضر في شعره وقال في اللهو والخمر مما يلائم ذوق الكوفيين الذين تأثروا بالحضارات المختلفة وكان فيهم المُجّان والمترفون ، فإذا تغيرت البيئة تغير معها الذوق الأدبي مُنشئا وناقدا ، ومما يدل على صدق ذلك قصة علي بن الجهم لما ورد على المتوكل مادحا بقوله :

أنتَ كالكلبِ في حفاظِكَ للودِّ وكالتيسِ في قراعِ الخطوبِ

فهمَّ بعضُ الحضورِ بقتلِه ، فقال الخليفة : " خلِّ عنه، فذلك ما وصل إليه علمُه ومشهودُه ، ولقد توسمتُ فيه الذكاءَ فليُقِمْ بيننا زمناً، وقد لا نعدم منه شاعراً مجيداً " . فلما أقام في الحضَر(في الرَّصافة) بضع سنين قال الشعرَ الرقيقَ الملائم للبيئة الحضرية كقوله :

عيونُ المها بينَ الرَّصافةِ والجسرِ جلَبْنَ الهوى من حيث أدري ولا أدري
أعَدْنَ ليَ الشوقَ القديمَ ولم أكنْ سلوتُ ولكنْ زِدْنَ جمراً على جمرِ

وكان لهذه البيئات المختلفة آثارها المختلفة في تفاوت الذوق الأدبي، سواء أكان في العصر الواحد أم في العصور المتتابعة، فلا شكَّ أن عدي بن زيد في الجاهلية يختلف عن زهير وطرفة في الذوق الأدبي لطول مقام عدي في الحاضرة، مما أكسبه رقة وسلاسة لا تجدهما زهير وطرفة

في جزالتهما وبداوتهما الخشنة ، ولا شك أيضا أن الذوق الأدبي على شطآن دجلة والفرات في العصر العباسي غيره في جزيرة العرب ، لما هذه البيئة الحديثة من خواص تجمعت وطبعت النقاد والأدباء طابعا حديثا في تذوق الأدب وإنشائه . ويمكن التدليل على تباين الذوق في الحالتين بما أنكره أحد النقاد على المتنبي حين وصف درع عدوه بالحصانة وأسنة أصحابه بالكلال(الضعف) في قوله يصف درع عدوه :

تخطّ فيها العوالي ليس تنفُذُها كأنّ كلّ سنانٍ فوقَها قلَمُ

قال القاضي الجرجاني: "فزعم أنه أخطأ في وصْفِ دِرْعِ عدوِّه بالحصانة، وأسِنة أصحابه بالكلال. ومن كان هذا قدرُ معرفته، ونهاية علمه فمناظرتُه في تصحيح المعاني وإقامة الأغراض عَناء لا يُجدي، وتعبٌ لا ينفَع؛ كأنه لم يسمع ما شحَنَت به العربُ أشعارَها من وصف ركْضِ المنهزم، وإسراع الهارب، وتقصير الطّالب، وقولهم: إنّ الذي نجّى فلاناً كرمُ فرسه، والذي ثبّطني عنه سرعةُ طرْفه، ولم يعلم أنّ مذاهبَ العرب المحمودة عندهم، الممدوحَ بها شجعانهم التفضلُ عند اللقاء، وترك التحصن في الحرب، وأنهم يرون الاستظهار بالجنَن ضرباً من الجبن"

٢-<u>الزمان</u>:

ويراد به العوامل المستحدثة التي تتوافر لشعب ما في فترة من الفترات فتنقله في درجات الرقي والحضارة، فيتشكل بما يتقرر في عصره من ثقافة ومذاهب مبتكرة، وهكذا يكون الذوق الأدبي حلقة تاريخية تصور خلاصة الجهود الثقافية والتهذيبية لعصر من عصور التاريخ الأدبي، وتجد أمثلة ذلك واضحة في تحول الذوق الأدبي بين العصر الجاهلي وما تلاه من العصور .

وخير مثال لذلك ما حدث في العصر العباسي إذ وُجد أدَبان: قديم وحديث أو قل وجد ذوق جديد ينعى على الأدب القديم طرائقه في الأداء وينكر على مقلديه انصرافهم إلى الماضي، البعيد بدلا من الحاضر، وما ثورة أبي نواس على الأطلال واستبدالها بوصف الخمر إلا أكبر شاهد على ذلك في نحو قوله :

صِفَةُ الطُلولِ بَلاغَةُ القِدمِ فَاجعَل صِفاتِكَ لِابنَةِ الكَرْمِ

بل واستهزاؤه بالعرب الذين يقفون على الأطلال في قصائدهم بقوله:

قل لمن يبكي على رسمٍ درَسْ واقفاً ما ضرَّ لو كان جلس
اتركِ الربعَ وسلمى جانباً واصطبحْ كرخيّةً مثلَ الغلَسْ

ونشأ أدب جديد في هذا العصر سايره الذوق حتى نرى الأصمعي اللغوي يقدم بشاراً على مروان بن أبي حفصة، ويعلل لذلك بتجديد بشار وسعة بديعه وعدم متابعته لمذهب الأوائل، وكان الذوق القديم قانعا بطبعيّة التعبير وقرب المعاني والاستعارات، فإذا بالذوق الحديث يعمد إلى الصنعة البديعية ويتعمق وراء المعاني وتركيب الاستعارات، فصرنا نسمع مثل قول أبي تمام في حرصه على المطابقة :(راجع كتب البديع والبلاغة لتعرف معنى المطابقة)

فَالشَمسُ طالِعَةٌ مِن ذا وَقَد أَفَلَت وَالشَمسُ واجِبَةٌ مِن ذا وَلَم تَجِبِ

وقول المتنبي مبالغا إلى درجة بعيدة :

وَضاقَتِ الأَرضُ حَتّى كانَ هارِبُهُم إِذا رَأى غَيرَ شَيءٍ ظَنَّهُ رَجُلا

وإذا تركنا ذلك إلى ذوق المعاصرين الأدبي فهل نراهم يعجبون بالبديع أو التكرار أو المبالغة أو المدائح أو تقليد السابقين أو فن المقامات مثلا ؟

٣-<u>الجنس</u> :

نعني به الجماعة التي سكنت مكانا واحدا وخضعت في حياتها لعوامله عهودا طويلة فنشأت فيهم طائفة من العادات والأخلاق وطرق الفهم والإدراك يخالفون فيه سواهم ممن أنجبتهم بيئة أخرى مغايرة .

ولكل جنس طابعه في الذوق الأدبي، فقد ظهر الذوق الفارسي في بشار وأبي نواس وابن المقفع، وقد ظهر أثر ذلك في ما اصطلح على تسميته بالشعوبية(ما المقصود بها؟)

كما ظهر الذوق الرومي في ابن الرومي في تسلسله واستقصائه وطول نفسه والذوق المصري في البهاء زهير الذي كان شعره حكاية الأسلوب المصري في جِدّه وفي هزله وفي روحه ومعانيه.

٤-<u>التربية</u>:

ونعني بها آثار الأسرة والتعليم والتنشئة الخاصة، فقد تجد جماعة من جنس واحد وبيئة واحدة وزمان واحد وهم مع ذلك متباينو الأذواق بسبب اختلافهم في الثقافة والدراسة والتهذيب الذي ظفر به كل منهم. ومن أمثلة ذلك شوقي وحافظ اللذان عاشا في زمان واحد في مصر ولكن كان لكل منهما في أدبه ذوق خالف به الآخر .

وفي القديم مثال على ذلك"يُحكى عن ابن الرومي أن لائماً لامه فقال: لم لا تشبه تشبيه ابن المعتز وأنت أشعر منه؟

قال:أنشدني شيئاً من قوله الذي استعجزتَني في مثله، فأنشده في صفة الهلال:

فانظر إليه كزورقٍ من فضةٍ قد أثقلتْه حُمولةٌ من عنبر

.... فصاح: واغوثاه، يا لله، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ذلك إنما يصف ماعون بيته؛ لأنه ابن الخلفاء، وأنا أي شيء أصف؟ ولكن انظروا إذا وصفت ما أعرف أين يقع الناس كلهم مني؟ هل قال أحد قط أملح من قولي في قوس الغمام.....وقولي في قصيدة في وصف الرقاقة:

ما أنس لا أنس خبازاً مررتُ به يدحو الرقاقةَ وشكَ اللمْحِ بالبصـــرِ
ما بين رؤيتِهـــا في كفِّه كرةً وبين رؤيتهـــا قوراءَ كالقمـــــر
إلا بمقــدار ما تنداح دائـــــرةٌ في صفحــة الماء يرمى فيه بالحجـر

٥-<u>المزاج الخاص أو الشخصية الفردية</u>:

المزاج هو الشخصية الفطرية الطبيعية أو هو ذلك العنصر من عناصر الحياة العقلية الذي يختلف باختلاف الأفراد من الناحية الوجدانية وكذلك من ناحية الميول . ويظهر أثر اختلاف المزاج في الذوق الأدبي إنشاء ونقدا، ومثال ذلك ابن الرومي الذي عرف بالمزاج السوداوي فكان طبيعيا أن يكون متشائما في نحو قوله:

لِمَا تُؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاءُ الطفل ساعةَ يُولَدُ
وإلا فما يبكيـــــه منها وإنهـا لأفْسَحُ ممَّا كان فيه وأرْغَدُ
إذا أبصرَ الدنيا اسْتَهلَّ كأنه بما سوف يلقى من أذاها يُهَدَّدُ

فقد خلع على الدنيا من مزاجه الحزين المتشائم وأبكى الطفل حين الولادة من كوارثها المرتقبة .

في حين أن شاعرا كالبحتري يخلع على الربيع بهجة من نفسه فتشيع فيه الحياة والجمال :

أَتاكَ الرَبيعُ الطَلْقُ يَختالُ ضاحِكاً مِنَ الحُسنِ حَتّى كادَ أَن يَتَكَلَّما
وَقَد نَبَّهَ النَوروزُ في غَلَسِ الدُجى أَوائِلَ وَردٍ كُنَّ بِالأَمسِ نُوَّما
يُفَتِّقُهـــا بَـرْدُ النَـدى فَكَأَنَّـــهُ يَبُثُّ حَديثاً كانَ أَمسِ مُكَتَّما